من أنا؟

المقدمة

الأشخاص الذين يدفعون بأنفسهم نحو الأمام يبصرون جحيماً مختلفا عن الذي نراه، إنهم ينظرون لشئ وراء الجحيم، لعلَّه الأمل أو قد يكون جحيماً آخر... وحدهم من يستمرون بالمضي قدما يعرفون الجواب اليقين.

الفصل الأول

دقّت الساعة، وانفتحت الأبواب على مصرعيها تاركة منفذا يدخل الهواء البارد، حاملا تعقيدات العالم الخارجي لنتذوق مدى قسوتها.
إنها الساعة صفر، اللحظة التى نرحب فيها بالأمس و نلبسه زينة الغد، هنا نترنح بين المواصلة و الإستسلام لكن غريزة البقاء تدفع (فريد) إلى العودة خطوتين إلى الوراء، يسقط أرضا و ينفجر ضحكا

- ما الذي أفعله؟، ما الذي أخيّره عن الآخر؟ (ضحك هستيري و بنبرة قاصية) أينما تطأ قدمي لن يكون في صحبتي سوى نيران الجحيم.

يستيقظ (فريد) ليجد نفسه في سريره، جسده متعرق و تنفسه ثقيل

- هل كان حلما؟

يسأل نفسه في تعجب و ما زاد تعجبه أن عيناه تذرفان الدموع بلا توقف، يحاول بيأس إيقاف هذا السيلان

- آخ، ألهذه الدرجة النظر إلى الهاوية مضحك.

تأمل أرجاء غرفته التي إعتاد تصميمها منذ ربيعه الأول، سريره يتوسطها، بها نافذة واحدة و سلة قمامة كبيرة في الزاوية، ليست واسعة، لكنها تمنح كرسيه فرصة للتحرك.

- أنا جائع

يحاول النهوض و بدون جدوى، يرفع نصفه الأعلى بصعوبة كبيرة لكنه يعجز عن المواصلة يصرخ مناديا منقذه (كمن يطلب المغفرة من الموت)

- أمي...

صوت تسارع الخطوات يقترب شيئا فشيئا عبر الرواق ثم يليه فتح للباب، تهرع الأم إلى رفع إبنها (بصوت ملائكي)

- عزيزي هل أنت بخير، هل تشكوا من خطب ما؟
- أنا بخير أحتاج فقط إلى رؤية ضوء الشمس
- الساعة الآن منتصف الليل

عندها لاحظ تأخر الوقت، النافذة مغلقة لكن يمكن سماع صوت عصف الرياح من ورائها (صمت مطبق يلف الغرفة)

- أنا جائع يا أمي
- ماذا أحضر لك؟
- ما يبقيني حيا حتى الصباح

تغادر الأم الغرفة مسرعة، صوت تسارع خطواتها يبتعد شيئا فشيئا، (يحدث فريد نفسه)

- أشعر بالبرد لكن في نصفي فقط، أشعر بالألم لكن في نصفي فقط، إلى متى... إلى متى سأحمل هذه القذارة معي، لو غادرتها، هل سأكون حرًا؟

يغمض (فريد) عيناه و يستغرق في التفكير، من يفتش عن اللانهاية، ما عليه إلا أن يغمض عينيه هكذا تحدث فريد.

فتح باب الغرفة بهدوء كبير (صرير الباب لا يكاد يسمع) دخلت الأم حاملتا كأس حليب ساخن و طبق من المعجنات، تفاجأت بأن إبنها مستغرق في النوم، تركت الطبق إلى جانبه و غادرت في هدوء.

الفصل الثاني

ظلمة لا نهائية، غرق، نحن نغرق في الظلام، صوت ما ينادي (فريد... فريد...فريد) يستيقظ مرعوبا.

- أين أنا؟

تجيبه أمه التي كانت تحاول إيقاظه

- أنت آمن في غرفتك لا تقلق
- (ضحكة استهزائية) و هل غرفتي في معزل عن العالم
- (بينما تشير لطعام) طلبت مني البارحة أن أحظر لك طعاما لكنك نمت قبل حضوري.
- لم أكن نائما (صمت) كنت أتدرب على الموت.
- أنظر لقد حل الصباح هل أرفع الستائر؟
- ليس في ذلك بدٌّ.
- (تجاهلته و فتحت النافذة) أعط لنفسك فرصة.
- (بصوت مرتجف) كيف حال الخارج؟
- أكثر إشراقا من الداخل.
- عيناي ليستا معتادتين نور الشمس (صمت) كيف حال البشر؟
- أقلّ تعاسة من المعتاد
- كيف حال الطبيعة؟
- تقاوم في يأس. (صمت) هل أجهز لك الحمام؟
- ضعيني أقرب إلى النافذة أريد تأمل الوجود

ترفع الأم إبنها بصعوبة نحو الكرسي، تدفعه بجانب النافذة.

- هكذا أفضل؟
- أحاول جعله كذلك
- زاوية نظرك مثالية؟
- كيف لي أن أعرف. (صمت) كل ما هو ثابت يستحيل أن يكون مثاليا
- سأعاود زيارتك

تغادر الأم الغرفة تغلق الباب بهدوء وراءها، قدماها لم تعد تستطيع تحمل ثقلها فتتهاوى على الأرض و تجهش بالبكاء.
يتأمل فريد العالم بعين متأنية، يحاول رؤية شيء ما، جسده يرتعش بردا مع كل نسيمٍ يمر، أذناه تسمع الكثير من الأصوات المتداخلة لكنه يميز بينها بسهولةٍ تامة، يسأل (فريد) نفسه في حيرة

- أين أنا من كل هذا؟

لأول مرة يشكك بطلنا في وجوده، صحيح أنه طرح سؤاله عبثيا، لكنه ينتظر الإجابة، مِن مَن؟
صوت قرقعة من ورائه، صوت قوي ومتكرر، إستطاع تمييزه لكنه عاجز عن الإلتفاف، يداه لا تحمل القوة الكافية لتحريك الكرسي حتى أن رقبته متيبسة من قلة الحركة (لا يغادر غرفته إلى نادرا)، إنه صوت سلة القمامة، الغطاء يرتفع شيء ما يحاول الخروج.
يضحك (فريد) و على ملامح وجهه شيء من التحسّر

- ألم تمت بعد؟

ما من مجيب لكن صوت القرقعة توقف و عادت السكينة تلف المكان. (يعود فريد إلى الحديث)

- أعلم أنك هناك.

الصوت الذي أجابه كان مألوف لفريد، إنه صوته بذاته

- هذا لأنك من ألقاني هنا.

ضحك فريد بهستيرية ثم قال :

- هذا هو الجنون إذا، إنني أحدث نفسي بأتم معنى الكلمة!
- تقصد أنك كنت تظن نفسك عاقلا؟ إنها لإهانة لذاتك المادية.
- لماذا لا أكون؟
- لأنك تعاني من الخفة، تحتاج ثقلا يمنحك الثبات.
- أملك قلبًا
- لكنه لا يبصر ألوان الحياة.
- إن القلوب التي تبصر ألوان الحياة لابد من فنائها قبل الأوان لأنها لم تولد بعد أو لعلّها قفزت من فوق الجحيم.

- هذه العبثية هي ما تجعلك تطفوا في معزل عن الوجود.
- (الضحكة الاستهزائية مجددا) كيف لسلّة قمامة أن تدرك معنى الوجود.
- هذا يعتمد على مدى إدراكك.

نفس الضحكة، لكن يليها صمت طويل كأنه حوار بين القبور، ذلك الصوت من سلة القمامة يقطع الصمت

- فريد... ما رأيك أن نتبادل الأدوار خذ مكاني و دع لي مكانك.
- نفس الضحكة، هذا مستحيل بنسبة إليك.
- لماذا تضن ذلك؟
- أعلم جيدا أنك لا تملك وعاء يحتويك غير تلك السلة و تطمح لأن تغادرها لتكون في إتصال مع العالم الخارجي.
- صحيح تمامًا.
- هذا ما كنت تقصده بقولك، أن نتبادل الأجساد.
- عين الصواب.
- ذلك لأن ذاتك تعجز عن إدراك كون بتالي تنعدم إنسانيتك، لكنك في المقابل قادر على إدراكها.
- أسايرك.
- أصل إلى أنك بدون جسد لا وجود لك.
- ليتني أستطيع التصفيق، دعني أعيد الطلب إمنحني جسدك يا فريد.
- لماذا تظن أنك أحقُّ مني به؟
- لأنك فائض عن اللزوم، عاجز أمام العالم، لا يمكنك حتى تغيير مكانك فكيف لك أن ترتقي بإنسانيتك.
- تقول بأن الإرتقاء يشترط التواصل و إحتكاك بالقذارة الإجتماعية (الضحكة الاستهزائية نفسها).
- للأسف، لا يمكنك أن تحدد موقع القمة العليا إن لم تقارنها بالقمم المجاورة.

صمت طويل، و ما قاطعه هذه المرة نحيب (فريد)، إنه يبكي و يردد جملة.

- أنا السبب، تسببت له بكثير من الألم، أنا السبب.

يفتح باب الغرفة بهدوء

- عزيزي هل أنت بغير
- نعم يا أماه

حاول إخفاء دموعه عن نظر أمه، لكن لا شيء يخفى عن الأم، إشتد توترها عند رأيتها للمشهد.

- أتبكي، هل أنت بخير، أيؤلمك موضع ما في جسدك
- أمي لقد عدت.
- فريد عزيزي

تعانق الأم إبنها و تنفجر بكاءا، و هي تكرر

- كم إشتقت لك يا بني العزيز، كم إشتقت إليك.

يحاول (فريد) الوقوف، هذا ما جعل الأم تعود للوراء خطوة، لسانها يعجز عن التعبير.

- أتستط...يع الو...ق
- أستطيع مشي لا مشكلة.

شيء لا يصدق، كان فريد عاجز عن تحريك نصفه السفلي منذ أعوام و اليوم يمشي بثبات!

شعر بالخجل من نظرات الدهشة على وجه أمه، خاطبها بلطف:

- أنخرج لسير؟
- ط...طبعا طبعا! لما لا

عند باب الغرفة توقف (فريد) ألقى نظرة عميقة على الغرفة و أنصب إنتباهه بالأساس إلى سلة القمامة.

نظرته، نظرة تحسر على فراق.

- شكرا لك

هذه آخر عبارة قالها بطلنا قبل إغلاق باب الغرفة وراءه، تعجبت الأم لذلك و سألت:

- من تشكر؟
- ألام الماضي على المستقبل الذي منحته لي.

لم تفهم الأم المعنى تحديدا لكنها تغاضت عن ذلك، يجول في ذهنها العديد من الأسئلة، قاطع إبنها تسائلاتها بطلبه

- أريد مغادرة سجني و إشتمام رائحة الحياة

كيف للأم أن ترفظ هذا الطلب، خرجا إلى الحديقة التي تحيط بالمنزل و جلسا على أرجوحة تحت شجرة ممتدة الأفاني.

أخذ (فريد نفسا عميقا) كمن يقول " أنا حر " ثم قال في نفسه

- ماذ يستفيد الإنسان لو خسر روحه و ربح العالم أجمع؟

هكذا تحدث فريد.

الفصل الثالث

أشعة الشمس تتسلل من بين أوراق الشجرة، تداعب وجوه الجالسين، يمسك فراد بيد أمه قائلا :

- الآن أقولها أنا إنسان، أنا من بمقدوره إدراك موضعه في الفراغ.

هذه الراحة النفسية التي يعيشها بطلنا بدأت بتعكر بعد بضع دقائق، لم يدرك السبب في البداية لكن إتضحت الصورة، إنه يعاني من الجوع، الرغبة في البقاء، خاطب أمه.

- أمي أشعر بجوع شديد يمزق أحشائي.
- تركت لك الطعام و لكنك لم تهتم به كعادك، لا شكّ أنه تلف.
- ما أنا فاعل الآن؟
- ما أدراني! لك سيقان ترفعك و أيدن تدعمك، إصنع لنفسك خلاصا.
- و هل الجسد وحده كاف لبلوغ الحرية، (في صمت) إن وجدت أصلا.
- عليك تحمله.
- كيف لي ذلك، أقول أنه شديد.
- و أنا شديدة التعب، كم إشتقت لنوم دع لي فرصة لمعانقة الفراش.
- لك ذلك يا أماه

تغادر الأم إلى مقصدها مغلقة الباب الرئيسي للمنزل، لم يلحظ (فريد) أنه وحيد تحت شجرة في حضرة القمر إلا حينها، هبط الليل مما زاد من جمال القمر و النجوم التي تحيط به.

- (في تنهد) آخ!.. لو تشرق الشمس، لم ترى عيناي النور إلاّ قليلا و لم يتحرك جسدي إلاّ قليلا، وحيد كالعادة.

صمت للحظات بينما عيناه تجوب الأرجاء يمينا و يسارا، عمق هائل يكتنف هذه الليلة المقمرة، عمق هائل ينبسط على الجانبين.

وقف فريد هناك، غارقًا في تأملاته، يستنشق الهواء البارد الذي يحمل معه رائحة الأرض الرطبة والأوراق المتساقطة. كان الصمت يعم المكان، مُعلنًا عن سيادة الطبيعة في هذا الوقت من الليل. كان يمكن سماع صوت النسيم وهو يداعب أغصان الأشجار، وصوت الحشرات الليلية وهي تعزف سيمفونية الظلام.

فجأة، شعر بالأرض تهتز قليلاً تحت قدميه، كأن الجبل نفسه يتنفس. رفع رأسه ليجد القمر قد اكتسى بلون أحمر خافت، مُعلنًا عن بداية خسوف لم يكن متوقعًا. شعر بقشعريرة تسري في جسده، ليس من البرد، ولكن من جمال المشهد الذي يتكشف أمامه.

"ليت الناس يرون ما أرى..." همس لنفسه، وهو يدرك أن هذه اللحظات الثمينة لا يمكن مشاركتها إلا مع القليلين الذين يقدرون الجمال الخفي للطبيعة. كان يعلم أنه بمجرد أن تشرق الشمس، ستختفي كل هذه الأسرار الليلية، وسيعود العالم إلى صخبه المعتاد.

لكن حتى ذلك الحين، كان فريد سيبقى هناك، وحيدًا تحت السماء المرصعة بالنجوم، يستمتع بالسكون والسلام الذي يأتي مع الليل. وفي قلبه، كان يعرف أن هذه اللحظات من العزلة كانت بمثابة هدية، فرصة للتأمل والتفكير في الحياة ومعانيها العميقة.